مقدمة الطبعة الأولى

ترتبط الدبلوماسية فى أذهان الناس بمعان متعددة إن كانت تدل على شيء فإنما تدل على ذلك التنوع الذى تنطوى عليه الدبلوماسية. فهى عند البعض تمثل هذا العالم الزاهى الحافل بالحفلات والمآدب والجو المعطر والذي يضم أناسا مرفهين يقضون حياتهم يتنقلون بين مدن الأرض العامرة، وهى عند البعض الآخر تعنى ذلك العالم الذى تحاك فيه الدسائس والمؤامرات وتدار الحروب ويخطط لها، وهى عند فريق ثالث لا ترمز إلى موضوع بقدر ما ترمز إلى نمط من الناس يتميزون بالذكاء والدهاء والقدرة على الخروج من المآزق، كما يتميزون فيما يصدر عنهم بالحرص والدقة والتحرج. أما المعنى الأخير، والأكثر موضوعية، وكذلك لا يطرأ إلا للقلة العليمة من الناس، فالدبلوماسية هى إدارة العلاقات الدولية بطريق التفاوض، أو هى فن إدارة العلاقات الدولية أو عملية تسيير شئون الدولةالخارجية، أو هى بشكل أكثر تحديدا أداة تنفيذ السياسة الخارجية أو فن إرجاد القوة كملجأ أخير. وفى نطاق هذا المعنى الأخير، وبشكل أكثر اتساعا وتحررا من التعريفات الأكاديمية، نستطيع أن نعتبر أن الدبلوماسية إنما تمثل تلك الجسور التى تقام بين الأمم والشعوب بالصبر والإصرار والدأب.

والحكمة كذلك، فى عالم مشحون بالأزمات والتوترات قد يصفو مناخه ويروق فى الصباح ولكنه يكفهر ويغيم فى المساء، وهذه الجسور التى تحرص الدبلوماسية على بنائها واستمرارها لم تعد اليوم قاصرة على ميدان واحد كما كانت فى الماضى وهو ميدان السياسة وعلاقاتهاالتقليدية، وإنما تعدتها إلى ميادين أخرى أكثر تأثيرا فى حياة الشعوب وهى ميادين الاقتصاد والثقافة والعلوم والإعلام والسياحة وانتقال البشر، والطاقة، إلى آخر مكونات حياة العالم اليوم بما تتسم به من تعقد وتركيب. ومثل هذا التنوع فى اهتمامات ومجالات الدبلوماسية اليوم لم يكن قائما فى القرن الماضى مثلا حيث إنه نتاج هذا التحول الخطر الذى حدث فى تركيب العالم من عالم يضم خمسين دولة عند الحرب العالمية الأولى إلى عالم يضم مائة وخمسين دولة لكل منها مصالحها وارتباطاتها ومشاكلها، ثم إلى الثورات التى غيرت وجه العالم ابتداء من الثورات الاشتراكية إلى ثورة المستعمرات إلى ثورة العلم والتكنولوجيا.

لذلك ليس غريبا أن يقال أن الدبلوماسية بهذا المعنى إنما تحمل هموم العالم، وأن الدبلوماسى لم يعد ذلك الكائن المرفه وإنما أصبحت تثقله أمور وأحداث لم يكن زميله يفكر فيها أو يواجهها من قبل.

والدبلوماسية قديمة قدم الكهوف، فهى ترتد إلى تلك الحقبة السحيقة من الزمن حيث سئمت القبائل البدائية القتال الذى كان ينشب بينها بسبب النزاع حول مناطق الصيد أو حول مورد ماء واختطاف النساء وسرقة الماشية، وقد استولى على قبيلتين منها الذعر من أن يؤدى استمرار القتال إلى فنائهما معا فرغبتا فى الصلح، غير أن مثار الصعوبة كان يكمن فى كيفية تقديم المقترحات حول عناصر الصلح للطرف الآخر فليس أخطر من أن تتقدم نحو عدو مسلح حيث لا يحميك إلا النوايا الطيبة. وأخيرا هدى التفكير المتواصل إحدى الجماعتين إلى اختيار جماعة من رجالها ارتدوا زيا خاصا مزركشا أضفى عليهم مظهرا ساميا وقد نجحوا بمظهرهم هذا أن يبرهنوا أنهم أصحاب رسالة سامية كما ان عليهم أن يمتلكوا من القدرات والمهارات ما يتمكنون به من إقناع الطرف الآخر فى السلام وتأمينه لقبيلتهم، وهكذا أنيط بهم القيام بأول نشاط دبلوماسى عرفته البشرية.

وقد كان اليونان يجندون قادتهم البارزين للمفاوضة حينما يتهددهم عدو من الخارج ، وكانوا يعاقبونهم بالنفي حين تكون جهودهم غير مرضية، ورغم أن الرومان قد اعتمدوا على العمل المباشر أكثر من اعتمادهم على الكلام، إلا أنهم كانوا يلجأون إلى الدبلوماسية

أيضا، ويقال إنه إن لم تكن روما قد قدمت شيئا للدبلوماسية لكفاها أن قدمت فكرة قدسية المعاهدات. ومن الطبيعى أن تضمن روما، وهى فى أوج عظمتها، معاهداتها كل الإمكانيات الممكنة.

وباستقرار مركز القوة فى عصر النهضة وبدء استقرار المواصفات بين الشعوب، بدأ وضع إطارات مقننة للدبلوماسية، ولنأخذ على سبيل المثال مسألة كالأسبقية بين السفراء والمبعوثين فى جلوسهم وركوبهم وتقدمهم، الأمر الذى دار حوله ملحمات ومباريات خلال القرن السابع والثامن عشر، وقد انتهت هذه المشكلة منذ قرن ونصف بفضل مؤتمر ڤيينا ـ ١٨١٥ ـ الذى قرر أن تكون أسبقية السفراء وفقا لأقدميتهم فى الوصول إلى البلد المعتمدين لديه.

غير أن التطور الحقيقى الذى لحق بالدبلوماسية والذى يكاد يصوغ وجهها المعاصر إنما كان نتيجة التغيرات العميقة التى حدثت فى وسائل المواصلات وأساليب نقل المعلومات والأخبار، وإلى استقلال الشعوب وظهور سيادات وكيانات مستقلة وظهور حكومات ممثلة للشعوب، وانتشار التعليم، وبروز التنظيمات الدولية التي تضم شعوب العالم. والواقع أنه خلال القرن ونصف القرن الماضى لم يكن لشىء تأثير على الدبلوماسية وعلى أساليب عملها مثل ذلك الذى أحدثه التطور فى المواصلات. فحين عقد مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٥ لم يكن رجال هذا المؤتمر يتصلون بعواصمهم بشكل أسرع مما كان يفعله الرومان فى بداية العصر المسيحى، ومنذ أقل من قرنين كان السفير الفرنسى يحتاج إلى شهرين ونصف شهر لكى يسافر من باريس إلى استكهولم، فى الوقت الذى يستطيع السفير اليوم أن يتناول إفطاره فى أثينا وغداءه فى مدريد. وأن يكون فى مكتبه بعد ظهر نفس اليوم، وقد تحقق للدبلوماسى فائدة من سرعة المواصلات من حيث سرعة نقل تقاريره إلي عاصمته،وعدد الأفراد والشخصيات الذين يمكن أن يتصل بهم فى بلاده، وتلقى توجيهات ومواقف عاصمته إزاء حدث من الأحداث. وفى الزمن الماضى لم يكن للدبلوماسى علم كبير بالأحداث التى تجرى فى أطراف أخرى من الأرض، أما اليوم فهو يمتلك من المعلومات والأخبار عما يجرى فى أطراف العالم أكثر مما يستطيع أن يستوعبه.

ورغم أن التقدم فى المواصلات قد قلل من تلك السلطة المطلقة التى كانت للسفير ، إلا أن هذا لا يعنى أن تأثيره فى الأحداث ومشاركته فى صنع قرارات بلاده من خلال تقييمه للموقف وتقديره لاتجاهات الأحداث قد انعدمت، ذلك أن التعقيد الذى ألم

بالعلاقات الخارجية والدولية المعاصرة ودقة العناصر التى تحكمها وتكوينها اليوم قد جعل الحكومات تعتمد بشكل متزايد على تحليل ممثليها للأحداث ورؤيتهم لها، وعلى ماذا يجب أن تكون مواقف حكوماتهم منها، ذلك أنه من العوامل التى تضفى قيمة على ما بيديه من تقديرات هو أنه« هناك» وأنه «فى» البلد الأجنبى وفى الموقع حيث تتاح له طرق لاحد لها من التعرف والفهم لهذا البلد واستكشاف العناصر الفعلية لقوته، وضعفه، وإمكانياته، فإن عمله فيما يقول بسمارك «يتضمن التخاطب الفعلى مع الناس والحكم بدقة على مايمكن لشخص آخر أن يفعله، والتقدير الدقيق لوجهات نظر الآخرين ، وفى التقدير الدقيق لوجهة نظره» فى كونه«فى تداخل مع الناس» وهو ما يعنى أن يكون متحكماً فى المناسبات وأن يتمكن من التأثير فى الأحداث إن لم يستطع التحكم فيها.

ومن ظواهر عصرنا الأخرى التي كان لها تأثير بالغ على الدبلوماسية انتشار عقيدة الديموقراطية وبروز الشعوب وامتلاكها لأقدارها، فحين جلست القوى الأوروبية حول مائدة مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ لم يكن بينهم ممثل واحد للديمقراطية كما نفهمها اليوم، فقد كانت الدبلوماسية وممارساتها بالنسبة لهذه القوى هى أمر من أمور الحكام، لذلك كانت من أخطر الاعتراضات على دبلوماسية الحكام هذه أن مجموعة من الرجال تستطيع أن تضع أمن ورفاهية أمة فى خطر، وهو الانطباع الذى أكدته الحرب العالمية الأولى حيث ظهر أن المأساة كانت نتيجة هذا اللون من الدبلوماسية وغياب عنصر المشاركة الشعبية والتمثيل، وقد قيل عام ١٩١٨ «إن نظام السفراء القديم قد فشل كما لم يصبح موضع ثقة الشعوب، وسوف تصبح الدبلوماسية القديمة وهى دبلوماسية البلاط والطبقات العليا فى نظر الشعوب سخيفة.

لذلك كان انتشار العقيدة الديموقراطية قد جعل على الدبلوماسية فى تعاملها اليومى أن تتوافق مع رغبات الناخب وهو ما يعنى فى النهاية الرأى العام ، وقد يعكس ما قاله اللورد ستراتج من أنه «فى عالم أصبحت فيه الحرب هى مأساة كل إنسان وكابوس كل إنسان فإن الدبلوماسية تصبح اهتمام كل إنسان» ، هذا التأثير العميق الذى تركته الديموقراطية على الدبلوماسية حيث أصبحت أكثر تعرضا لضغوط الرأى العام وأذواقه،كما أنها فقدت تقاليدها الأرستوقراطية.

من هنا أصبحت الديموقراطية المفتوحة أحد عناصر الديموقراطية والثقة فيها فى العالم كله، وقد بلغت المناصرة الشعبية لمفهوم الدبلوماسية المفتوحة القمة فى نهاية الحرب الأولى

حين ظهر شعار«الاتفاقيات المفتوحة عن طريق علنى»، وفى فضح الثورة الاشتراكية فى روسيا للاتفاقيات السرية التي عقدها العهد القيصرى ، وقد ضمن مبدأ الاتفاقيات العلنية ميثاق عصبة الأمم الذى نص على أن تودع الدولة العضو سكرتارية العصبة نسخا من كل الاتفاقيات الدولية التى هى طرف فيها كما أصبح هذا المبدأ أيضا جزءا من ميثاق الأمم المتحدة.

إن سيادة العقيدة الديموقراطية وتأثيرها الذى رأيناه على مضمون وأساليب ممارسة الديموقراطية وكذا بروز قوة الرأى العام وأثره على صناعة القرارات والمواقف السياسية للحكومات، إن هذا يدفعنا إلى أن نتعرض لتطور حديث يرتبط بالدبلوماسية وهو ما أصبح يعرف «بالدبلوماسية الشعبية» ، فهذه الدبلوماسية رغم أنها لا تحوى خصائصا ومستويات الدبلوماسية التقليدية الرسمية، إلا أنها تمثل إحدى الأدوات المباشرة والفعالة فى ربط الشعوب وتحقيق التواصل بين الأمم، وهو ما يمكن أن يكون إحدى أدوات دعم ومساعدة الدبلوماسية الرسمية.

وتمارس هذه الدبلوماسية الشعبية على مستويات التكوينات والتنظيمات والاتحادات الشعبية مثل اتحادات الكتاب والفنانين والصحفيين والفرق الفنية والرياضية ووفود الشباب والعمال والمزارعين، ويرتبط بهذا الشكل الشعبى فى الدبلوماسية ما تقوم به فئات الخبراء والفنيين الذين توفدهم دولة بلغت مستويات ناضجة فى مجالات يحتاجها مجتمع آخر لم يتحقق له مثل هذا التقدم كخبراء الرى والتربة وبناء الخزانات وتشييد الطرق وتدريب الكادرات الفنية، وهذه الفئات لو حققت رسالتها لتركت تأثيراً ملموسا فى الحياة اليومية للمجتمعات ربما فاق فى تأثيره التأثير الذى تصنعه الدبلوماسية التقليدية، إلى جانب التطور الذى أحدثته أساليب المواصلات الحديثة وانتشار العقيدة الديموقراطية هناك، كذلك التطور الجديد الذى تحقق فيما يسمى الآن «دبلوماسية المؤتمرات» أو«الدبلوماسية المتعددة الأطراف» «والدبلوماسية العلنية» كما أطلق عليها«الدبلوماسية البرلمانية».

ويعتبر التنظيم الدولى القائم والمتمثل فى الأمم المتحدة أكثر النماذج تمثيلا لهذا الشكل من الدبلوماسية حيث يضم هذا التنظيم جميع دول العالم بعد أن تحقق الاستقلال لعديد من شعوب المستعمرات وبروز كياناتها الدولية وتملكها لإرادتها وتطلعها لأن يكون لها دور فى العالم الذى قام بعد الحرب العالمية الأولى وعرف بعصبة الأمم حينما لم يكن يضم سوى خمسين دولة، بمستواه اليوم فى الأمم المتحدة التى أصبحت تضم ١٥٨ دولة، يكفى أن نلحظ هذا الفرق كى ندرك أهمية هذا التنظيم فى تمثيل الرأى العام الدولى.

وباعتبار مجموعة القيم والأهداف التى أرساها ميثاق هذه المنظمة الدولية كأساس تقوم عليه علاقات دولها، فإن أحكام هذا الميثاق تستهدف القضاء على شريعة الغاب فى العلاقات الدولية وإلى أن تمارس كل دولة دبلوماسيتها لا فى إطارها الفردى وغاياتها الضيقة المحدودة وإنما فى نطاق الهدف العام للدول الأخرى الأعضاء فى العائلة الدولية غير أن مجموعة القيم هذه ربما لا تتعدى فى كثير من المواقف المستوى النظرى حيث تتدخل مصالح وصراعات القوى وتعكس أهداف المنظمة الدولية وتسعى إلى تحويلها إلى آراء لخدمة أهدافها الذاتية.

ورغم هذا فإن دبلوماسية المنظمات الدولية هى أقرب الدبلوماسيات إلى الرأى العام وإلى مزاجه بحكم العلنية التى تسود أعمالها وبحكم أن الوفود وهى تعمل فى نطاق هذه الدبلوماسية تعلم أنها تخاطب الرأى العام الدولى، ولذلك فقد شاركت هذه الدبلوماسية بقسط كبير فى زيادة الوعى لدى الرأى العام الدولى وحساسيته لمشكلات العالم وأزماته ، كما حقق اتصالا مباشرا بين شعوب العالم من خلال مشاركتها فى الحياة الدولية.

ونظرا لتعقد وتعدد أوجه العلاقات الدولية اليوم وللعناصر المكونة لنشاطات الشعوب وخاصة التى حققت استقلالها حديثا وتتطلع إلى أن تبنى من جديد هيكلها الاقتصادى والاجتماعى الذى يفتقر فى بنائه الراهن لعديد من المقومات الأساسية، وكذلك إلى بروز الهوة الحضارية التى تفصل بين الشعوب المستقلة حديثا وبين تلك التى حققت مراحل نموها الاقتصادى والاجتماعى، نقول أن هذا دفع دبلوماسية المنظمات الدولية إلى أن لا تقتصر فى نشاطها على المجال السياسى وحده وإنما امتد ليشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية والعلمية والعمالية ومجالات الصحة والطيران والبريد والمواصلات والطاقة النووية واستخداماتها السلمية.. إلخ . وتبلور هذا النشاط فيما يعرف بالوكالات المتخصصة وعلى الرغم من المثل التى تستهدفها هذه الأجهزة والوكالات فى رفع المستوى الاجتماعى والاقتصادى للشعوب النامية، إلا أن واقع هذه الوكالات يجعلها محدودة الأثر بحكم افتقارها إلى الإمكانيات الفعلية لتحقيق أهدافها إلا أن ثمة أملا قائما فى أن يتحقق فى يوم ما الاتجاه الذى يمكن أن يمثل بحق دعما لدبلوماسية المنظمات الدولية فى هذا المجال الحيوى والهام بالنسبة لقضية أساسية تتجه لأن تصبح من أهم مشكلات البشرية، ونعنى بها قضية الشعوب والمجتمعات المتخلفة، بأن توجه المساعدات التى تقدمها القوى والبلاد المتقدمة إلى البلدان النامية من خلال وعن طريق المنظمة الدولية بشكل يحقق التنسيق والتوجيه المثمر والرشيد لهذه المساعدات من جهة أخرى من الشروط والضغوط والاعتبارات السياسية التى ترتبط بها.

وقد حققت دبلوماسية المنظمات الدولية تقدما محسوسا فى مجال إبراز نمط جديد من الدبلوماسيين، هم ما يعرفون بالدبلوماسيين الدوليين. وهى العناصر التى وإن كنا لا نستطيع القول أن أفرادها تخلوا عن انتماءاتهم القومية وولاءاتهم الوطنية، إلا أن طبيعة العمل الذى ارتبطوا به وسع من اهتماماتهم وأفقهم وأكسبهم العقلية الدولية التى استطاعت أن تحتوى وأن توفق بين ولاءاتها القومية وبين ولاءاتها الدولية وأن ترعى مصالحها القومية من خلال منظور دولى أعم.

وتتعرض الدبلوماسية البرلمانية إلى انتقادات تبدو عند اختبارها فى التطبيق العملى واقعية، وأبرز هذه الانتقادات أن أعمال هذه الدبلوماسية تثقلها فى النهاية صراعات ومصالح بعض القوى الكبرى التى تعمل على أن تجتذب مجموعات عديدة من دول المنظمة الدولية بحكم الارتباطات التى تربطها بها لكى تدعم وتبرر بها مواقفا وأهدافا هى أبعد ما تكون عن أهداف المنظمة الدولية، كما يقول منتقدو هذا الشكل من الدبلوماسية أنها تقوم على الدعاية والإعلان والاستهلاك المحلى، بل والتشهير فى بعض الأحيان أكثر مما تقوم وتعبر عن نوايا حقيقية، ويتباكى دعاة الدبلوماسية التقليدية بمراسيمها وقواعدها وقيمها الصارمة على أساليب التعامل الدبلوماسى فى نطاق الدبلوماسية البرلمانية، ويشيرون إلى رفع خروشوف لحذائه فى وجه الإمبرياليين وهو يخطب فى الدورة الخامسة عشرة للأمم المتحدة.

غير أنه أيا كان النقد الذى يوجه إلى دبلوماسية المنظمات الدولية وعناصر النقص التى تبدو فى عملها والتى هى فى الواقع انعكاس للمتناقضات الدولية القائمة إلا أن هذا الشكل من الدبلوماسية قدم فى الواقع منبرا عالميا. تعرض من فوقه مختلف أقسام الرأي العام العالمى صوتها وتعبر عن قضاياها ونظراتها فى مشكلات العالم، وخلال الأزمات التى تهدد بالانفجار يكفى هذه الدبلوماسية أن تكون مجالا للتفاوض السياسى وفرصة لأصوات التعقل أن ترتفع، وهو ما يمثل فى الواقع القنوات التى يمكن أن تتسرب من خلالها الضغوط والتهديدات وتبعد عن نفسها فى صورة جدل ونقاش يبرد خلاله النزاع.

وقد تحقق للدبلوماسية أكثر أشكالها حداثة ونعنى بذلك ما أصبح يعرف باسم«مؤتمرات القمة».

ورغم أننا نستطيع أن نستدل على نماذج تاريخية لهذا الشكل من الدبلوماسية، مثل

التقاء نابليون والإسكندر الأول إمبراطور روسيا عام ١٨٠٧، إلا أن هذا الشكل لم يتبلور إلا منذ الحرب الثانية، وبدأ فى سلسلة الاجتماعات واللقاءات التى عقدها رؤساء دول وحكومات، وقد ارتبطت هذه الاجتماعات ببروز مسائل ومشاكل فى العلاقات الدولية أو الإقليمية مما يستوجب معالجتها عن طريق الرؤساء، وأن هذا لا يعنى عودا إلى دبلوماسية الحكام الأرستوقراطية.

ومن نماذج هذه المؤتمرات مؤتمرات طهران ويالتا وبوتسدام التى عقدها رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وإنجلترا خلال الحرب العالمية مع ألمانيا النازية، ومؤتمر جنيف الذى عقد عام ١٩٥٥ وضم رؤساء حكومات الدول الأربع الكبرى، وكذا مؤتمر القمة الذى عقد فى باريس عام ١٩٦٠ ثم اجتماع جلاسبورو بين الرئيس الأمريكى جونسون والمستر كوسيجين رئيس الوراء السوفيتى عام ١٩٦٨، وكذلك مؤتمرات القمة لرؤساء وحكومات البلدان العربية، والإسلامية، ولقاءات القمة لرؤساء بلدان عدم الانحياز ومؤتمرات القمة الأفريقية، ثم ما عرف بعصر مؤتمرات القمة الأمريكية السوفيتية الذى ارتبط بما عرف بسياسة الوفاق بين القوتين والذى تبلور فى أوائل السبعينات حيث انعقدت مؤتمرات القمة الأمريكية السوفيتية: قمة موسكو فى يونيو ـ يوليو ١٩٧٢، وقمة واشنطون عام ١٩٧٣، ثم قمة موسكو عام ١٩٧٤، بين الرئيس الأمريكى نيكسون والزعيم السوفيتى برجنيف، ثم اجتماع قمة فلاديفوستك فى الاتحاد السوفيتى فى نهاية عام ١٩٧٤، بين الرئيس الامريكى فورد وبرجنيف. وأخيرا اجتماعات قمة جنيف (نوفمبر ١٩٨٥)، وريكافيك ١٩٨٦)، وواشنطون (ديسمبر١٩٨٧) وموسكو (يونيون ١٩٨٨) بين ريجان وجورباتشوف. فضلا عن اجتماعات القمة المنتظمة بين رؤساء دول حكومات التحالف الأطلنطى واليابان.

إن هذا الشكل من الدبلوماسية إنما يحمل عدة دلالات أبرزها أن العلاقات الدولية بشكل عام قد أصبحت على درجة من الخطورة والتعقيد مما يستدعى أن يتناولها الرؤساء أنفسهم، وتعنى ضمنا أهمية العمل الدبلوماسى ليصبح من اختصاص الرؤساء، ويصبح كل رئيس هو وزير الخارجية الفعلى، ولا يعدو منصب وزير الخارجية أن يكون رئيسا للجهاز الدبلوماسى المكلف بتنفيذ خطوط السياسة الخارجية التى يضعها الرؤساء. وإن كان الأمر يختلف فى بعض الحالات بشكل يعتمد على قوة وزير الخارجية كما كان الحال مثيلا مع هنرى كيسنجر الذى يساهم بشكل متواز مع الرئيس الأمريكى نيكسون فى صياغة مفهوم السياسة الخارجية الأمريكية وممارساتها.

غير أنه بقدر الأهمية التى تحيط باجتماعات القمة قدر الإحباط الذي قد ينشأ عنها، ذلك أن مثل هذه الاجتماعات تتم عادة وسط اهتمام بالغ من الرأي العام حيث يتوقع منها نتائج تستوي مع أهمية الرؤساء وإمكانياتهم فى الحسم والتقرير، فإذا ما جاءت نتائج مؤتمرات القمة على عكس هذا التوقع، فإن الإحباط يكون نمطيا، وهو ما ينعكس على القضية أو المشكلة موضوع البحث والتداول، من أجل هذا فإن الإجماع هو على ضرورة الإعداد الجيد جدا لمثل هذه المؤتمرات بشكل يصبح فيه مضمونا توصلها إلى نتائج إيجابية قد لا تكون بالضرورة مثالية أو تعالج بشكل مطلق المسائل موضع البحث وإنما على الأقل تحقق تقدما فيها. فى مؤتمر القمة الأمريكى السوفيتى فى موسكو ـ يونيو عام ١٩٧٢ ـ والذى دشن سياسة الوفاق بين القوتين، جاء انعقاده بعد أن كان قد اتفق تقريبا على الاتفاقية الأولى للحد من الأسلحة الاستراتيجية ـ سولت ١ ـ والتى شكلت أكبر إنجازات هذا المؤتمر.

بالإضافة إلى هذه الأشكال التى اكتسبتها الدبلوماسية فى تطورها المعاصر، فثمة تطور آخر لحق بالدبلوماسية وتبلور فيما أصبح يعرف بدبلوماسية التنمية Development Diplo-macy ووفقا لهذا الشكل الجديد لم تعد الدبلوماسية قاصرة على نطاقها التقليدى من تتبع والاهتمام بالشئون والأحداث السياسية، أو على الأكثر بالشئون والعلاقات التجارية، بل تعدت ذلك لتشمل الاهتمام اليومى، الذى يكاد يأخذ كل وقت الدبلوماسية وأجهزتها وأفرادها، بمجالات الاقتصاد بفروعه المختلفة من صناعة وزراعة وتجارة، والعلوم والتكنولوچيا وإنجازاتها، وشئون الطاقة، والبيئة، والرياضة، والفنون، والهجرة. إذا كانت دبلوماسية العالم المتقدمة قد تأثرت بهذا المفهوم الجديد بحكم تزايد حجم علاقاتها الثنائية وتنوعها، فإن هذا المفهوم يكاد يتطابق اليوم مع دبلوماسية العالم الثالث ودوله التى يتزايد فيها الارتباط بين أهداف وممارسات سياستها الخارجية، وبين خدمة برامج التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فيها، الأمر الذى فرض على أجهزة العمل الخارجى فيها أن تكون مسئولة عن توفير الإمكانات وظروف نجاح هذه البرامج بما توفره لها من زيادة في التبادل التجارى، وتشجيع الصادرات ، وجذب للاستثمارات، ونقل لمستويات العالم والتكنولوچيات التى تحتاجها وتتفق مع ظروفها . وتشجيع السياحة، ورعاية مصالح أبنائها المهاجرين فى الخارج وربطهم بالوطن الأم.

وقد اكتسب مفهوم دبلوماسية التنمية أبعادا أخرى بالنسبة لدول العالم الثالث نتيجة

لنشوء قضايا أصبحت تمثل أهمية متقدمة بالنسبة له مثل قضايا الديون الخارجية، وأسعار المواد الأولية، ومشكلات الطاقة، والغذاء، والمياه، والسعى لإقامة نظام اقتصادى دولى جديد، والحوار بين الشمال والجنوب، الأمر الذى أصبح يشكل جانبا كبيرا من اهتمامات الأجهزة الدبلوماسية للعالم النامي وأفرادها واشتراكهم فى المؤتمرات والتجمعات التى تناقش هذه القضايا، سواء كان هذا فى نطاق الأمم المتحدة ووكالاتها، أو فى نطاق التجمعات الإقليمية مثل منظمة الوحدة الأفريقية، أو مجموعة عدم الانحياز، أو المؤتمر الإسلامى، أو الجامعة العربية.

ومن الطبيعى أن يلقى هذا التعدد فى الاهتمامات ومجالات العمل التى تتضمنها دبلوماسية التنمية، مسئوليات ومهام جديدة ومضاعفة على الأجهزة الدبلوماسية والدبلوماسى المعاصر، فهو مطالب بأن يكون على وعى والمام مستمر بالتطورات فى مجالات الاهتمام الجديدة سواء فى بلده أو فى البلد المعتمد لديها وما لدى بلاده منها وما تحتاجها، كما لم تعد اتصالاته ومقابلاته ومعارفه قاصرة على مؤسسات الدبلوماسية التقليدية مثل وزارات الخارجية وإنما امتدت إلى مؤسسات ووكالات وشخصيات خارج هذا النطاق تغطى تقريبا كل فروع الحياة.

ومثل هذه المسئوليات الجديدة هى التى دفعت الأجهزة الدبلوماسية لأن تبدى اهتماما بتعميق الفهم والوعى بهذه المسئوليات وبالارتباط العضوى بين أهداف السياسية الخارجية والعمل الداخلى، ذلك من خلال تنظيم الندوات وحلقات النقاش، والدورات التدريبية المتقدمة، وأن تصوغ برامجها التدريبية المنتظمة بشكل يتفق مع هذا التطور فى العمل الدبلوماسى.

كان هذا باختصار شديد التطور الذى حدث فى مجال الدبلوماسية وأعطى لها صورتها المعاصرة التى تتميز فى كثير من شكلها ومضمونها عن صورة الدبلوماسية الكلاسيكسة غير أن هذا لايعنى أنه ليس ثمة مقومات للدبلوماسية الكلاسيكية، ما زلنا نجدها فى الدبلوماسية الحديثة.

فمن ناحية الشكل فإنه رغم انتفاء المراسم الباهرة التى ارتبطت بالدبلوماسية القديمة مثل استقبال السفراء على الحدود بإطلاق الدافع وإرسال العربات المذهبة والخيول المطهمة فى حفلات تقديم السفراء أوراق الاعتماد، وتميز تبادل الزيارات والحفلات ببعض المبالغات

مثل حمل السيوف الثقيلة وارتداء الملابس المزخرفة، على الرغم من انتهاء عصر هذه الأساليب، فإن كثيرا من تقاليد الدبلوماسية ومراسمها مازالت باقية ومحتفظة بأغلب مظاهرها الأصلية، فمازال من عناصر العمل الدبلوماسى الأساسية توجيه الدعوات وإقامة الحفلات وما زال يحكم هذه الحفلات نظام الاسبقيات والألقاب، وقد حاولت الدبلوماسية السوفيتية فى أول عهد الثورة أن تتخطى مراسم وتقاليد الدبلوماسية إلا أنها عادت والتزمت بها.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن التقدم الذى تحقق فى مجال المواصلات قد أثر على مهمة الدبلوماسية، إلا أنا لمسنا فى نفس الوقت أن الوضع المتميز للدبلوماسى كمراقب ومحلل للأحداث والتطورات التى تجرى فى البلد المعتمد لديها يجعل أحكامه وتقاريره ذات تأثير هام على قرارات ومواقف حكومته، بل إنه فى بعض المواقف ما زال السفير رغم سهولة اتصاله بعاصمته يواجه بمواقف وأزمات ليس لديه عنها سوى تعليمات غامضة أو ليس لديه تعليمات على الإطلاق، الأمر الذى يستدعى منه قرارا ومبادرة شخصية منه. وحتى مع توفر تعليمات حكومته فإن النتائج التى تتحقق عنها إنما تعتمد فى جانب كبير منها على ما يتميز به السفير من لباقة فى عرض وتقديم هذه التعليمات إلى الحكومة المعتمد لديها.

كذلك إذا كان عهد الدبلوماسية السرية التى تجرى مناقشتها واتصالاتها وتتم اتفاقياتها داخل إطارات مغلقة بعيدة عن مشاركة الرأى العام أو درايته بها، إذا كان هذا العهد قد انقضى، إلا أننا ما زلنا نجد حتى الآن أن جانبا من الاتصالات الدبلوماسية وخاصة حول تلك الأمور الخطيرة وذات التأثير فى علاقات الدول إنما تتم فى نطاق كبير من السرية والتكتم حرصا على هذه الاتصالات من تأثيرات أدوات الإعلام والدعاية وما تخلقه عادة من ظروف قد تكون ذات تأثير سلبى على سير الاتصالات وخاصة فى مراحلها الأولى، وحتى فى نطاق الأمم المتحدة وهى أكثر المنابر علانية فى العمل الدبلوماسى فإن الكثير من الاتصالات تتم بين الوفود فى نطاق من السرية حتى يمكن التوصل إلى نقاط اتفاق بين أطراف الاتصالات يمكن الإعلان عنها.

وكما أن الدبلوماسى الناجح اليوم هو الذى يستطيع أن يعبر عن وجهات نظر بلاده وينشر أفكارها ويدافع عنها، كذلك كان الأمر فى الدبلوماسية القديمة، فكما روى السفير الهندى البارز بانيكار، فقد وصف مبعوثا هنديا خاصا إلى بلاط أجنبى مهمته

كالآتى :«سوف أتوجه إلى بلاط كايرافا لكى أعرض قضيتنا فى أحسن وجه، ولكى أحاول أن أجعلهم يتقبلون طلباتنا، فإذا فشلت جهودى وأصبحت الحرب حتمية فسوف نظهر للعالم أننا على صواب وأنهم على خطأ حتى لا يسىء العالم الحكم بيننا». فى هذا التعبير فى الواقع تكمن كافة العناصرالمكونة للمهمة الدبلوماسية كما هى قائمة اليوم.

إن الزمن والعادات وظروف وأوضاع وعلاقات العالم قد تغيرت ولكن صفات ومكونات الدبلوماسى الناجح لم تتغير فالدبلوماسية فى الواقع لا تعدو أن تكون مهنة يحتاج ذلك الذى يمارسها بنجاح إلى التدريب والخبرة حاجته إلى الاستعداد ، فمن الأمور الجوهرية مثلا أن يكون لدى الدبلوماسى الناجح المعرفة والفهم للشعب الذى يعمل بينه ويعيش ويسعى إلى أن ينقل صورته إلى بلده، هذا الفهم إنما يتسع ليشمل حضارته وتقاليده، ولغته ومشاكله وتطلعاته وتحيزاته ومخاوفه. إن الدبلوماسية التى لا تراعى توفر هذه المكونات فى أفرادها إنما تعرض نفسها لكثير من الثغرات.

إن السير هارولد نيكلسون[1] يعتبر أن دبلوماسية القرن الخامس عشر والسادس عشر كانت تتطلب في الدبلوماسى خصائص رئيسية: أن يبدو طبيعيا، وأن يكون ودودا، وأن يمتلك المعرفة والثقافة الواسعة وأن يكون صبورا قادرا على الصمود فى المفاوضات ممتلكا لقدرة المماطلة والتسويف، كما يجب أن يكون غير قابل للاستثارة، قادرا على أن يتلقى الأنباء السيئة دون أن يهتز، متسامحا تجاه ما قد يتصوره أنه حماقة وتجاهل من حكومته ، أما حياته الخاصة فيجب أن تتصف بالزهد والترفع حتى لا يترك ثغرة لأعدائه. إن هذه الصفات التى كانت مطلوبة فى دبلوماسى الأمس وما زالت مطلوبة فى دبلوماسى اليوم، إنها صفات العقل الذكى ، والقلب النبيل.

بهذا التصور للدبلوماسية: معانيها، أصولها، التطورات السياسية والدولية والعملية التى

---

(١) Niclson' Harold دبلوماسى بريطانى ومؤرخ الدبلوماسية الشهير. التحق بوزارة الخارجية البريطانية عام ١٩٠٩ ، وتقلد فيها عددا من المناصب حتى اعتزل السلك الدبلوماسى عام ١٩٢٩ لكى يتفرغ للسياسة والتأليف الذى برز فيه بأعماله التى تنوعت ما بين الرواية، وكتابة السير، والسياسة، والتاريخ.
من أبرز أعماله عن الدبلوماسية كتابه الذى يعتبر مصدرا رئيسيا فى الدبلوماسية:Diplomacy -
وصدر لأول مرة عام ١٩٣٩ وكان من الدقة والموضوعية بحيث جعل وزارة الخارجية السوفيتية تلجأ إلى ترجمته وتوزيعه على أعضائها رغم أن مؤلفه غربى،

- The evolution of diplomatic method (1954).

- The evolutiln of diplomacy(1966).

أثرت فى طبيعة الدبلوماسية، والأبعاد والأشكال الجديدة التى اكتسبتها نتيجة لهذا التطور ، والمهام الجديدة للوظيفة الدبلوماسية، وصفات الدبلوماسى الأساسية ،ومكوناته لكى يتعامل مع هذا التطور فى الوظيفة الدبلوماسية وخاصة إذا كان من دول العالم الثالث، بهذا التصور العام، أقدمت على تقديم هذه الفصول ونقلها إلى العربية بهدف تفصيل وتأصيل جوانب الدبلوماسية هذه. وفصول الكتاب مختارة من كتب حديثة عن الدبلوماسية يعالج كل منها جانبا هاما من الجوانب التى تشكل الدبلوماسية وخاصة فى تطورها ووجهها المعاصر، كتبها دبلوماسيون ذوو خبرة طويلة وعريضة فى العمل الدبلوماسى فضلا عن امتلاكهم لأساس نظرى واضح، ومن هنا جمعت عروضهم ما بين الخبرة النظرية والعملية ومن هنا كان تميزها.

والفصل الأول طبيعة الدبلوماسية وبدائلها مأخوذ عن كتاب للدبلوماسى البريطانى Adam Watson صدر تحت عنوان: Diplomacy, The Dialogue between Nations وفى هذا الفصل يعالج الدبلوماسية على أنها حوار بين الأمم وأداة المجتمع الدولى فى إدارة علاقاته، وكعملية متمدينة تقوم على الوعى واحترام أمة لمصالح الأمة الأخرى، كما يبين الترابط والتداخل بين الكيانات السياسية وما يستلزمه هذا من حوار رشيد، وأن هذا الحوار، والجهاز الذى يدار به، وشبكة القواعد والاتصالات والمؤسسات ، وقواعد السلوك التى تطورت عنها، إنما تشكل جوهر الدبلوماسية. أما البديل عن الدبلوماسية فهو اختفاء نظام الدول المستقلة وقيام حكومة عالمية فيدرالية الأمر الذى لايستبعده انصارها باعتبار أن كل البشرية الآن هى إلى حد كبير تمثل مجتمعا واحدا يعتمد بعضه على بعض أكثر من المجتمعات السابقة، وحيث إنه فى العصر النووى وعصر المجاعة فإن الاستقلال والسيادة المطلقة أصبحت لاتحمل نفس معانيها السابقة وظهر مفهوم الاعتماد المتبادل: Interdepindence.

أما الفصل الثانى الذى تناول أداتين من أدوات الدبلوماسية وهما كتابة التقارير Report-ing والمفاوضات Negotiations فقد أخذ عن كتاب الدبلوماسى البريطانى الشهير همفرى تريفيليان، الذى عمل سفيرا فى مناطق عديدة وهامة مثل الشرق الأوسط، والاتحاد السوفيتى، والصين، وله أعمال متميزة عنها، وصدر الكتاب تحت عنوان Diplomatic channels وفى الجزء الخاص بالتقارير، سواء كانت فى شكل التقرير التقليدى المفصل أم فى شكل برقيات، يبحث ما تتطلبه كتابتها من عناصر يركز فيها على الأمانة ، والدقة، والوضوح، والبعد عن التحيز، والحذر والاقتصاد وخاصة فى كتابه البرقيات. أما عن المفاوضة فهو يؤكد على ضرورة السفير وأعضاء سفارته فى الإعداد والمشاركة فيها بعد

الانتهاء منها، كما يروى خبراته فى مفاوضات هامة قام بها، ويوصى بضرورة دراسة المناهج الوطنية وخصائصها فى التفاوض.

أما الفصل الثالث فهو مستمد من كتاب صدر تحت عنوان: The Modern Ambassador. The Search and Challenge والكتاب هو مجموعة البحوث التى ألقيت فى ندوة نظمها The Institute for the Study of Diplomacy التابع لجامعة جورج تاون ـ وموضع تركيز هذه الندوة، ومن ثم فصول الكتاب، هو مناقشة التساؤل الذى شاع مع التقدم السريع فى وسائل المواصلات والاتصالات المباشرة بين الحكومات والرؤساء ووزراء الخارجية ومستويات عديدة أخرى من المسئولين، حول دور السفير وهل هو ما زال جوهريا أم لا. واتصالا بهذه النقطة المركزية ناقش الذين ساهموا فى هذا الكتاب المهام الجديدة التى تواجه السفير اليوم وما إذا كانت تتطلب نوعا مختلفا من الدبلوماسيين عليهم أن يعنوا باهتمامات جديدة مثل شئون الطاقة، والاتصال الواسع بين البشر، ونقل التكنولوچيا، والمياه، والإرهاب، والمخدرات.. إلخ

ومما يميز هذا الكتاب، الخبرات الوطنية المتعددة التى يعرضها، فالمشتركون فيه هم وزراء خارجية وسفراء سابقون لأقطار مثل ألمانيا الغربية ، والنمسا، واليابان، والولايات المتحدة، وفرنسا، وإيطاليا. وفى هذا قدم Bernolt Vo Staden ـ الذى عمل لمدة ٦ سنوات سفيرا لألمانيا الغربية فى واشنطون ـ تصوره عن النماذج والمسئوليات المتغيرة للسفير، كما عرض John Halstead الذى عمل سفيرا لكندا لدى ألمانيا الغربية والناتو، رؤيته لـ«سفير اليوم»، وقدم Kingman Breugter الذى كان رئيسا لجامعة ييل قبل أن يعمل سفيرا لأمريكا لدى بلاط سان جيمس ـ قدم نصيحته لسفير جديد وقد تضمن أحد الفصول التى نقلناها من هذا الكتاب فحصا ومناقشة«للمتطلبات والمؤهلات» الواجب توافرها فى السفير. فى هذا ساهم Karl Gruber الذى شغل لمدة ٩ سنوات منصب وزير خارجية النمسا وسفير لبلاده فى الولايات المتحدة وأسبانيا وسويسرا وألمانيا الغربية بمقالته عن«الصفات المشتركة للسفراء الجيدين» ، كما ساهم كل من Francois de Laboulsye سفير فرنسا فى البرازيل واليابان، والولايات المتحدة، Jean Laloy الدبلوماسى والأكاديمى الفرنسى، بورقة مشتركة عن«مؤهلات سفير» . أما Egiolio Ortona الذى عمل ممثلا دائما لإيطاليا لدى الأمم المتحدة، فقد قدم تصور للسفير باعتباره«العامل المساعد الذى لا غنى عنه» The Indispensible Catalyst. أما Hideo Kitahara الذى كان سفيرا لليابان فى فرنسا وممثلا دائما

لها لدى المقر الأوروبى للأمم المتحدة فى جنيف، فقد ناقش«مكونات السفير الناجح» كما أورد اللورد Maclehse of Beoch سفير بريطانيا لدى الدنمراك وحاكم هونج كونج لمدة ١١ عاما «قائمة مختصرة للصفات الأساسية» للسفير.

أما **الفصل الرابع** فهو مأخوذ من كتاب هام بالنسبة لدبلوماسية العالم الثالث ودبلوماسييها وخاصة فى تعاملهم مع العالم المتقدم وقد صدر تحت عنوان: Third World Diplomat in Dialogue with The First World كما أنه كتب من وجهة نظر دول العالم الثالث ووجهة نظر أوضاعها واحتياجاتها. أما كاتبه فهو السفير Robert Moore الذى عمل مندوبا ساميا لجيانا لدى كندا، ولتميز الكتاب المهنى والنظرى فقد نشره مركز أكاديمى محترم هو مركز بحوث التنمية الدولية فى أوتوا.

ويركز الفصل الذى اخترناه من هذا الكتاب: Prepating for Larger Purposes: The Selection and Training of Third World Diplomats على عنصرين رئيسيين بالنسبة لدبلوماسيى العالم الثالث: اختيارهم، وتدريبهم، وهو بداءة يتساءل عما تريده دول العالم الثالث والصغير من دبلوماسييها، وبالتالى ما يجب أن يتوفر فيهم لكى يلبوا بكفاءة ما تتطلبه منهم وظيفتهم الدبلوماسية واحتياجات بلادهم واهتماماتها فى ميادين حيوية لنموها وتقدمها مثل نقل التكنولوچيا، والزراعة، والاقتصاد والتجارة، وانتقال البشر. وعلى هذا فإن الفصل يركز على أن ظروف دول العالم الثالث واحتياجاتها تفرض عليها أن تختار أكفأ العناصر لتمثيلها فى الخارج سواءكانوا سفراء أو مساعديهم، وهو لا يقتصر فى عناصر الخدمة التقليدية على أعضاء السلك الدبلوماسى من وزارات الخارجية وإنما على العناصر الفنية التى تختار من أجهزة أخري متخصصة فى مجالات العلم، والزراعة،والطب، والثقافة.. إلخ.

واختيار هذه العناصر يتطلب معايرا دقيقة للاختيار وعملية يمر فيها المرشح للخدمة الدبلوماسية باختبارات دقيقة لتبين جوانب شخصيته. ولذلك يحاول فى هذا الفصل تحديد معايير الاختيار تلك، كما أن بناء جهاز دبلوماسى فعال يتطلب برنامجا تدريبيا متماسكا يساهم فى بناء قدرات الدبلوماسيين وتنميتها بشكل مستمر، وفى هذا يتصور الفصل العناصر المنهجية اللازمة لمثل هذا البرنامج.

أما **الفصل الخامس والأخير**: The Practical Negotiator فهو مأخوذ من كتاب يحمل نفس العنوان وضعه أستاذان فى العلاقات الدولية هما: William Zatman& Moureen Beinar ويعالجان فيه بشكل منهجى هذه الأداة الرئيسية للدبلوماسية، ورغم أنهما لا يعملان بالدبلوماسية وليس لهما خلفية دبلوماسية، إلا أن الفصل عامر بالاستشهادات بقضايا دولية وإقليمية عولجت عن طريق التفاوض، والمقابلات مع دبلوماسيين وشخصيات اشتركت فى مفاوضات دولية لها خطورتها. وبذلك يؤكد الفصل على أن الأصل كان ولا يزال هو أن يكون للسفراء ومساعديهم دور رئيس فى عملية التفاوض، ويناقش مكونات المفاوض الجيد من الصبر، والثقة بالنفس، والإبداع ،والقدرة على التحمل الجسدى والعقلى، كما يناقش متى تكون المفاوضة طريقا ملائما لتناول النزاعات، ويحلل أهم خصائص الموقف القابل للتفاوض، كما يتناول بالتحليل المرحلة التى تسبق التفاوض من حيث إنها مرحلة استكشاف استعداد الأطراف للتفاوض، والأساليب التى تستخدم فى هذه المرحلة وما يجب التركيز عليه فيها وما يجب تفاديه خلالها.

وأخيرا أرجو أن أكون قد قدمت بهذه الفصول شيئا مفيدا لأبناء الدبلوماسية المصرية والعربية وخاصة أجيالها الجديدة التى تنتظرهم مهام أكثر تنوعا تتطلب مستوى دائم التجدد من القدرات الذهنية والاستعداد للنهوض بها بشكل كفؤ وفعال.

القاهرة يناير ١٩٨٨ — د. السيد أمين شلبى